

الفصل الثالث

أسلوب ابن حزم

لعل أظهر ما يطالع الباحث في تراث ابن حزم هو جودة الأسلوب الذى صيغ به هذا التراث - وخصوصا ما يتعلق منه بالأدب شعرا ونثرا - فأشراق عباراته، ونضرة كلماته تنم عن قراءات واسعة الأطراف فى كتب اللغة والأدب وكثرة استظهاره روائع المنظوم والنثور، فضلا عن موهبته الأدبية جعلته يرتجل الشعر على البديهية، ويصوغ مكنون فكره بعبارات تتخللها لمسة الحسن والجمال.. فهو - بحق - «من الفصحاء الأبيناء الذين يمتزج كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورقة، وتستعذبه الآذان تقطيعا ورنينا»^(١).

ولالإمام ابن حزم نوعان من الأسلوب:

أحدهما الأسلوب العلمى الذى كتب به أكثر مؤلفاته لا سيما كتب الخلاف والعقائد مثل كتاب «الفصل» وكتاب «المحلى» وكتاب «الإحكام فى أصول الأحكام». والآخر هو الأسلوب الأدبى الذى كان يهتم فيه بالصور البيانية، فيكثر من السجع والاستعارة والكنائيات.. ويحرص على أن تكون الكلمات منتقاة، والعبارات متآخية منسجمة يعانق بعضها بعضا. ولقد حوى كتابه: «طوق الحمامة فى الألفة والألاف» من روائع الأسلوب الأدبى ما جعل بعض المفكرين يرى أنه فى نثره الفنى كان خيرا من أدباء عصره، لأن نثره كان حديث النفس يتصل بالنفس، لا تكلف فيه ولا صناعة واضحة^(٢) ويجمل بنا أن نقتبس نموذجا من تلك الروائع الأدبية التى زخر بها كتابه «الطوق» كى يتسنى لنا الحكم على بدائع نثره، وإشراق منطقته، فى كتاب يعدّ - بحق - فى قمة أدبنا الإسلامى:

(١) سعيد الأفغانى: ابن حزم ورسالته فى المفاضلة ٧٢.

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٩٨.

لنستمع إليه وهو يصف جارية تعلقت بها نفسه، وملكته عليه شغاف قلبه
فيقول:

«ألفت في أيام صباى، ألفة المحبة، جارية نشأت في درانا، وكانت في ذلك
الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها
وخفوها ودمائتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسيلة الستر،
فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة
القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، كثيرة
الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجى نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس
للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان في المنع
والبخل، مما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها، غير
راغبة في اللهو.

على أنها كانت تحسن العود إحسانا جيّدا، فجنحت إليها، وأحببتها حبا مفرطا
شديدا، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة، وأسمع من فيها لفظة، غير
ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع، بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء
البتة^(١).

أما الأسلوب العلمي لابن حزم فهو ذلك الأسلوب الذي يهتم فيه بإبراز الحقائق
العلمية دون اعتماد على المحسنات البديعية، ومن هذا النوع كتاب الفصل الذي
ترى فيه «مسحة التنسيق والترتيب واضحة، وطريقته في معالجة المواضيع طريقة
منطقية صريحة لعله اكتسبها من ظاهرته، فهو لا يؤول كالباطنية، ولا يقيس
كالحنفية، ولا يكنى ولا يورى ولا يغمغم بل يمشى قدما واضحا صريحا لا يحتمل

(١) طوق الحمامة ١٤٤ - ١٤٥، هذه القصة التي يرويها ابن حزم عن حب له، أول ما عرف من كتاب
الطوق، وشاعت على نحو واسع، ويعود الفضل في ذبوعها إلى المستشرق الهولندي رينهاردت دوزي (١٨٢٠ -
١٨٨٣م) فلم تكذب عينه تقع عليها، حتى أخذ بها، وترجمها في فرنسية رقيقة، عذبة وصافية، في كتابه:
«تاريخ مسلمي إسبانيا» وعنه ترجمها إلى الألمانية المستشرق الألماني «شاك» في كتابه: «شعر العرب وفنهم
في إسبانيا وصقلية»، وحين ترجم الأديب الأسباني خوان فليرا (١٨٢٧ - ١٩٠٥م) هذا الكتاب - الطوق - إلى
اللغة الأسبانية أعطى القصة العذوبة نفسها، ورغم ذلك قام المستشرق الأسباني الشاب فرانسيسكو بونس
بويجس (١٨٦٣ - ١٨٩٩م) بترجمتها مرة ثانية من اللغة العربية مباشرة، وقد أثار القصة جدلا كبيرا
حول عفة ابن حزم، وعذرية الحب في الأندلس (الدكتور الطاهر مكى: الطوق ١٤٤ هامش).

اللفظ أكثر مما يطيق من معنى، ولا يدعى دعوى إلا أرفقها بشاهدها وأيدها بمروى متسلسل الإسناد^(١)»

خصائص أسلوب (ابن حزم):

وهناك خاصيتان يلمسهما القارئ لأسلوب ابن حزم فى كتابه الفصل:

أولاً: الوضوح:

وهو من الأمور التى كان ينادى بها ابن حزم ليسهل استيعاب العلوم وفهمها فتعم الفائدة وينتشر الخير، ولقد كان يرى أن معاداة العلوم والجهل بها - مثل المنطق - مرده إلى: «تعقيد الترجمة وإيرادها بألفاظ غير عامية. ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة، فتقربنا إلى الله ﷻ بأن نورد معانى هذه بألفاظ سهلة، يستوى فى فهمها العامى والخاص، والعالم والجاهل حسب إدراكنا وما منحنا خالقنا تبارك وتعالى من القوة، والتصرف، وكان السبب الذى حدا من سلف من المترجمين إلى إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين المسلك نحوها، الشح منهم بالعلم والضن به»^(٢). ولعل هذا الوضوح الذى عمل له ونادى به ابن حزم يرجع إلى منهجه الذى لم يألف التأويل أو التكنية، أو غير ذلك.. فضلا عن رغبته فى نفع الناس ونشر العلم بينهم، وهذا ما يتفق مع الآثار التى جاءت تحت على تعليم العلم ونشره، وتنهى عن كتمانها والضن به: أليس الرسول ﷺ هو القائل: «من كتم علما ألبسه الله يوم القيامة لجاما من نار»^(٣)، ولا شك أن تعقيد العلم وعدم إيضاح مسائله لئلا يخل به لا يتفق مع أخلاق الإسلام التى آمن بها ابن حزم وعاش لها.. وما أجمل ما تقرأ فى ذلك لابن حزم: «... فإن الحظ لمن أثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ويدعو إليه

(١) ممدوح حقى: مقدمة تحقيق كتاب حجة الوداع لابن حزم ص ٨ دار الیقظة العربية للتأليف والنشر بدمشق (بدون تاريخ).

(٢) ابن حزم: التقريب لحد المنطق ٨.

(٣) رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥ ورواية ابن ماجه: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» ابن ماجه (١ / ٩٦ - ٩٨) باب من سئل عن علم فكتمه..

فى شوارع السابلة، وينادى عليه فى مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ويجزى الأجور لمقتنيه ويعظم الأعمال عليه للباحثين عنه، ويسنى مراتب أهله، صابرا فى ذلك على المشقة والأذى، لكان ذلك حفا جزىلا وعملا جيدا وسعيا مشكورا كريما وإحياء للعلم^(١)..

ونود أن ننبه إلى أن الوضوح الذى تميز به ابن حزم وضوح نسبي يظهر إذا ما قورنت كتبه بغيرها من الكتب فى عصور تشبه عصر ابن حزم، وفى مسائل فلسفية كالتى عالجه فى كتابه.. أما لو نظرنا للوضوح بمعناه المطلق فإن بعض المسائل التى تعرض لها كتاب الفصل قد تحتاج إلى توقف ونظر ملى حتى يستطيع القارئ أن يستوعب دقائقها ويدرك أسرارها، ولا غرو فأنى للنظرة العجلى أن تفقه كلاً ما هو من الفكر فى نروته، ومن الفلسفة فى أعمق قضاياها ومشكلاتها؟ ولعل فيما كتبه ابن حزم عن الزمان والمكان وحدوث العالم وغير ذلك دليلا على ما نقول. حيث يجد القارئ العادى شيئا من خفاء المعنى، ذلك الخفاء الذى لا يرجع إلى أسلوب المؤلف بقدر ما يرجع إلى طبيعة الموضوع الذى يعالجه.. ولا شك أن الأسلوب يتأثر بالفكرة التى يصوغها الكاتب، لأن الأساليب ما هى إلا قوالب تصب فيها المعانى فإذا كان المعنى بسيطا جاء الأسلوب - تبعا لذلك - واضحا بينا، وإذا كان المعنى دقيقا غامضا كان للعبارة التى تصاغ به نصيب من ذلك.. واقرأ - إن شئت ما كتبه الغزالي فى كتابه «الأحياء» عن المنجيات وأهميتها، أو عن المهلكات وخطرها، وقارن ذلك - من حيث الوضوح - بمسألة من المسائل العشرين التى تناولها فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ليبطل آراءهم ويظهر تهافتهم وهى قضايا فلسفية حاول الغزالي أن يلبسها رداء الوضوح، ولكن هيهات أن تقارن بما كتبه عن الأخلاق أو العبادات فى كتاب «الأحياء».

وهذا الوضوح النسبى الذى نجده فى كتابه الفصل يرجع فيما يرجع إلى أساليب استخدمها مصنفه، وسمات عرف بها، منها:

١ - التكرار: الذي يلجأ إليه ابن حزم ليوضح فكرته ويرسخها في الأذهان، وذلك كما حدث عندما عرف حد التغاير الصحيح فقال: (هو ما شهدت له اللغة وضرورة الحس والعقل وهو أن كل مسميين جاز أن يخبر عن أحدهما بخبر ما لا يخبر به عن الآخر فهما غيران لابد من هذا، وبالجملة ما لم يكن غير^(١) الشيء نفسه فهو غيره، وما لم يكن غير الشيء فهو نفسه^(٢)).

ويتعرض للمعنى نفسه في الصفحة التي تليها فيقول: «حد التغاير في الغيرين هو أن كل شيء أخبر عنه بخبر ما لا يكون ذلك الخبر، في ذلك الوقت خبرا عن الشيء الآخر فهو بالضرورة غير ما لا يشاركه في ذلك الخبر، وليس في كل ما يعلم ويوجد شيئا يخلوان من هذا الوصف بوجه من الوجوه وهذا مقتضى لفظة الغير في اللغة^(٣)».

وزيادة في الإيضاح لا يكتفى «ابن حزم» بتحديد معنى «الغيرية» بل يبين اللفظ الذي يقابله فيقول: «وحد الهوية هو أن كل ما لم يكن غير الشيء فهو بعينه إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيطة يعقلها أحد البتة فما خرج عن أحدهما دخل في الآخر ولا بد، وأيضا فكل اسميين مختلفين لا يخبر عن مسمى أحدهما بشيء إلا كان ذلك الخبر خبرا عن مسمى الاسم الآخر ولا بد أبدا فمساهاما واحد بلا شك^(٤)» وأحيانا نرى ابن حزم لا يكتفى بذكر المسألة في كتاب واحد بل يفصلها أو يوجزها في كتاب آخر من كتبه مما يزيدنا إشراقا ووضوحا^(٥).

٢ - الإطناب: حيث لا يكتفى بالقول الموجز إنما يلجأ لبسط القول في المسألة التي يتناولها مما يجعل المعاني مكشوفة ومحددة قاطعة لا تستعصى على من يريدنا بأيسر كلفة وأقل مجهود^(٦).

(١) هكذا في الأصل، ولعلها مقحمة.

(٢) الفصل ٢ / ١٣٧.

(٣) الفصل ٢ / ١٣٨.

(٤) الموضوع السابق.

(٥) راجع - مثلا - مسألة النسخ في كتاب الفصل وكتاب الإحكام، وكتاب المحلى، وغير ذلك كثير

يدركه من عقد صلة بتراث ابن حزم.

(٦) راجع أبا زهرة: ابن حزم ٢٠١.

٣ - فهم ابن حزم لما يكتب، وهضمه للفكرة التي يتناولها، لأن تعقيد الأسلوب يأتي غالبا من عدم وضوح الفكرة في ذهن صاحبها، فلا يحسن الإبانة عنها أو يكون من عجمة في اللسان أو القلم فلا يملك وسائل التعبير المشرق المبين، وصاحب كتاب «الفصل» كان مسيطرا على موضوعه آخذا بأطرافه، فضلا عن تمكنه من اللغة وقدرته على البيان^(١).

٤ - دقة كتابته، وحسن تقسيمها، وحصر موضوعاتها، فهو لا يُدخِلُ في موضوع ما ليس فيه، ولا يُدخِلُ في جزء من موضوع ما يكون جزءا من غيره، ولا صلة له بما يتكلم فيه، وإذا كانت هناك فكرة تتعلق بموضوعين فإنه يذكرها بتفصيل في أولهما، وإجمال أو إشارة في ثانيهما، وذلك ليكون كل موضوع قائما بذاته واضحا من غير أى تعصيب في طلب الحصول أو التنقيب، فأسلوب ابن حزم العلمى كنفسه وفكره، وكلاهما مشرق واضح^(٢).

ثانيا: شدته وعنفه:

أما الخاصية الأخرى لأسلوب ابن حزم فهي عنفه وتجاوزه - في بعض الأحيان - ما يجب أن يتحلى به العلماء من هدوء في الحجاج، ولطف في النقاش، برغم أنه أتقى باللائمة في كتبه على الذين يستعملون الشغب في الجدل، ويميلون للسب والصياح وذكر أن ذلك ينافى ما ينبغي أن يكون المناظر^(٣).. والواقع أنه قليل هم أولئك الذين يلتزمون بما يشترطونه على أنفسهم ولا يجذبهم الخصام إلى ما لا يرتضون.. والواقع أن شدة لهجة ابن حزم، وقسوة عباراته كانت مضرب الأمثال، حتى قيل «سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقتان»^(٤) ومن أراد مثلا على ذلك فليقرأ تعليقه على نسب المسيح عليه السلام الذي ورد في الأناجيل إذ يقول «قال أبو محمد: فاعجبوا لهذه المصيبة الحالة بهم ما أفحشها، وأوحشها، وأقذرها، وأوضرها، وأرذلها، وأندلها، متى الكذاب ينسب المسيح إلى يوسف النجار ثم ينسب يوسف إلى الملوك من

(١) راجع المرجع السابق ٢٠١.

(٢) المرجع السابق ٢٠١.

(٣) انظر: مقدمة كتاب الفصل، وكتاب التقريب لحد المنطق ١٩٧.

(٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٥.

ولد سليمان بن داود - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أبا فابا، ولوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذى ذكر مَتَّى حتى يخرجهُ إلى ناثان بن داود أخى سليمان بن داود، ولا بد ضرورة من أن يكون أحد النسبين كذبا، فيكذب مَتَّى أو لوقا ولا بد أن يكون كلا النسبين كذبا فيكذب الملعونان جميعا، ولا يمكن البتة أن يكون كلا النسبين حقا، ولوقا عندهم - لَوْقَ الله صورهم وألاق وجوههم ولقَّاهم البلاء، وألقى عليهم الدمار واللعنة - فى الجلالة فوق جميع الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ...^(١) ولكن ما هى الأسباب التى جعلت ابن حزم يلجأ لهذا اللون من العنف؟
لعل تلك الأسباب تتضمن ما يلى:

أولا: الفجوة التى كانت بينه وبين أهل عصره، فهو قد اتهم فى دينه، وهُجِرَ من قومه هجرا غير جميل، وجافوه وآذوه وتجاهلوا قدره، وحاولوا إخمال ذكره، بل تجاوزوا الحد فأحرقوا ثمار فكره، حرقوا كتبه علنا فى أشبيلية، وإن ذلك ليخرج الحليم عن حلمه، فكيف مَنْ أُصِيبَ بَعْلَةٌ أَفْقَدَتَهُ الحلم، وولَدَتْ عنده ضيقا وقلّة صبر، بل أورثته نزقا كما قال عن نفسه^(٢).

ثانيا: ثقة ابن حزم فى نفسه واعتداده بآرائه، فهو يقول بعد أن ساق الآيات التى تدل على طلب الجدل المحمود:

«قد عَلَّمنا تعالى فى هذه الآيات وجوه الإنصاف الذى هو غاية العدل فى المناظرة، وهو أن من أتى ببرهان ظاهر وجب الانصراف إلى قوله، وهكذا نقول نحن اتباعا لربنا ﷺ بعد صحة مذاهبننا لا شكنا فيها، ولا خوفا منا - أن يأتينا أحد بما يفسدها، ولكن ثقة منا بأنه لا يأتى أحد بما يعارضها أبدا، لأننا والله الحمد أهل التخليص والبحث وقطع العمر فى طلب تصحيح الحجة واعتقاد الأدلة قبل اعتقاد مدلولاتها. حتى وقفنا - والله الحمد - على ما ثلج به اليقين. وتركنا أهل الجهل والتقليد فى ريبهم يترددون...»^(٣) ونعتقد أن فى هذا النص ما يشير إلى روح الاعتزاز والثقة

(١) الفصل ٢ / ١٥.

(٢) ابن حزم: مداواة النفوس ٥٤، وانظر أيضا - أبا زهرة: ابن حزم ٢٠٢.

(٣) الأحكام ١ / ٢٠.

بالنفس التي تكد تصل أحيانا إلى العجب والغرور خصوصا عندما يناقش أحد الأئمة الكبار أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي..

ثالثا: المرض الذي أصابه وتحدث عنه في كتبه، فهو يقول: «لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربوا في الطحال شديدا، فَوَلَدَ ذلك على من الضجر وضيق الخلق، وقلّة الصبر والنزق أمرا جاشت نفسي فيه إذ أنكرت تبدّل خُلُقِي واشتد عجبِي من مفارقتي لطبعي: وصحّ عندي أنّ الطحال موضع الفرح وإذا فسد تولد ضده^(١)».

رابعا: تمكن النصارى واليهود في بلاد الأندلس وتطاولهم على الإسلام إلى درجة تجاوزوا فيها قدرهم، وتعدوا حدود الأدب والوقار، ولا ريب أن أهل الكتاب في عصر صاحبنا كانوا من هذا الصنف الذي تستثنيه الآية الكريمة ﴿وَلَا تُجَدِّدُوا أَمَلَكُمْ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٦) ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين يلتمس عذرا لابن حزم في هجومه على اليهود والنصارى ويعتبر ذلك - على حد تعبيره - «من كمال جدله لا من نقصه، ومن أسباب سلامته لا من عيوبه، لأنه في هذه الحال يدافع عن الإسلام والإسلام حق، وغيره ليس كذلك فما كان يسوغ لنا وهو يدافع عن الإسلام ضد المهاجمين له من أهل الديانات الأخرى أو المنحرفين من الزنادقة أن نفرض أن عند هؤلاء حقا يطلبونه، أو يعلنونه لأن هؤلاء يريدون تشويه الحقائق الإسلامية أو إفساد عقيدة المسلمين أو بث أفكار فاسدة بينهم، إذ هم لا يرجون للإسلام وقارا، ولا يألونه إلا خبألاً...»^(٢).

هذه هي أهم العوامل التي نرى أنها كانت سببا في شدة ابن حزم وعنف أسلوبه، ولعل في هذه العوامل ما يجعلنا نلتمس له العذر، خصوصا إذا كان المرض الشديد الذي أصابه من وراء كل ما زلت فيه قدم ابن حزم من ضيق وسخط وملال.. على أن البيئة التي عاش فيها ابن حزم لم تكن بيئة منصفة، بل تجاوزت حدود الاعتدال عندما سلبت الرجل فضائله وعلمه، وحرقت تراثه وفكره، وماذا يكون موقف العالم عندما يرى كتبه تلتهمها النيران علانية أمام الناس؟ هل كنا ننتظر منه بعد هذا

(١) مداواة النفوس ٥٤.

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٩٠.

الظلم والتجاهل أن يكون لطيفا في تعبيره، لئنا في موقفه؟ ثم ماذا يضير ابن حزم عندما يتصدى بأسلوب عنيف لليهود والنصارى في ديار الأندلس؟ أليس هؤلاء النصارى هم الذين عملوا على محو الإسلام من تلك البلاد وطردوا أهله؟ ألم يكن ابن حزم ينظر بظهر الغيب عندما وقف لهؤلاء الأردال وفضح ديانتهم وكشف ضلالهم، وكان في موقفه هذا - مع ما فيه من شدة - أَرْضَى لَهِ مِنْ أَوْلَيْكَ الْفَقْهَاءَ وَأَدْعِيَاءَ الْعِلْمِ يَأْكُلُونَ عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ، وَيَقْفُونَ عَلَى كُلِّ بَابٍ تَارِكِينَ صَلِيبِيَّةَ الْأَنْدَلُسِ تَفْعَلُ أَفَاعِيلُهَا الْكَرَاءَ فِي الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟.

هل كنا نلوم ابن حزم لو اشتد - مثلا - على حكام يذكر لنا التاريخ أنهم كانوا يستعينون بالنصارى في قتال بعضهم بعضا، ابتغاء عرض من الدنيا قليل؟ إن فهم الباحث للظروف والملابسات التي أحاطت بالمؤلف مهمة للوصول إلى الحكم السديد، ونحن عندما نؤرخ للإمام ابن حزم نضع هذه الأشياء أمام نظرنا عندما نحكم له أو عليه.. وأعتقد أننا لو وضعنا في حساباتنا جانب المبالغة في هذه الشدة التي تنسب للإمام، وأنه بشر يخطئ ويصيب، رفعنا الرجل إلى درجة سامقة من الإجلال والتقدير.. وما أحرانا أن نتذكر دوما قول القائل:

كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

ومن عجب أن الذين يلومون ابن حزم على شدته وعنفه يقعون فيما ينهون عنه غيرهم، إذ يتجاوزون الحدّ وهم يتحدثون عن الإمام ويذكرونه بعبارات تخلو من العدل والإنصاف فيكونون على حد قول القائل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم